# حول الملاحظات البلاغية
# في
# صدر الإسلام

بقلم الدكتور
الوصيف هلال الوصيف

# حول الملاحظات البلاغية فى صدر الإسلام

بقلم الدكتور

**الوصيف هلال الوصيف**

ليس هناك من شك فى أن الإسلام قد فجر الطاقات المخبوءة فى قوى الإدراك البشرى حين أسر العرب قرآنه منذ اللحظة الأولى بأسلوبه المنفرد، ونمطه الراقى . وبيانه المعجز .

ولقد أثار حوله جوا من الحركة ، واليقظة ، والدراسة ، والجدل ، والانتباه . فعانيه بما فيها من صحة ، وسلامة . وتوفية ، وتسلسل ، وترتيب ، ومنطقية ، ووضوح قد حلقت فى أفق عال ليس إلى الوصول إليه من سبيل . وأغراضه بما فيها من تنوع ، وتلون ، وتنقل ، قد صارت و كأنها الحديقة التى تكاثرت أشجارها ، وتنوعت أزهارها ، واختلفت ثمارها وتعددت طعومها ، وصياغاته قد جاءت فى مستوى ينبع الجلال من خلال أحرفها وكلماتها ، ويشع الجمال من خلال نظمها . وتراكيبها .

إن نسق القرآن المتساوق ، وإن فواصله الدقيقة المتناسقة وإن مقاطعه المتوازنة المستوية ، وإن جماله التوقيعى الأسر ، وإن أداءه القوى المتميز : إن هذه كلها ، وأشياء غيرها قد استولت على عقول من أصغوا إليه ، وسبت أفئدة من استمعوا له ، فأسلموا الروعته قيادهم طائعين أو كارهين واستسلموا

لجلاله مؤمنين أو كافرين، ولأنهم أهل بيان وأصحاب سليقة، ولسان يعرفون للكلمة قدرها. ويعرفون الموطن التي تحسن فيه، والموطن التي تسوء. تراهم وقد حاكوا القرآن إلى هذه المعرفة التي استقرت عندهم، وتمكنوا منها، فما وجدوا فيه عيباً، ولا لمسوا فيه خللا. وحين تحداهم القرآن مرة ومرات بأن ينسجوا على منواله، وأن يأتوا له بشبيه أو لأقصر سورة منه. قصرت همتهم فلم يقدروا على شيء منه أبداً وعاشوا في عجز روع أفئدتهم. وهز كيانهم، وجعلهم يتخبطون حائرين معلقين عجزهم على شماعة السحر الذي ينبع من القرآن فلا يستطيعون له معارضة، ولا لطريقته مجاراة.

وقصة الوليد بن المغيرة حين هزه إيقاع القرآن من داخله ذائعة مشهورة والتاريخ يذكر، والرواة كذلك يذكرون أن بني قومه قد بلغتهم عن الوليد مقالة في أمر القرآن وهو من هو الحاذق البصير الذي لا يغيب عنه شيء من أسرار لغته، ولا من دقائقها فخفوا إليه وعلى رأسهم أبو جهل ليقنعوه بأن يقول في القرآن قولا يعلم أهله أنه له كاره، وحينما خاطبوه في هذا الأمر قال لهم: ليس منكم من رجل أعلم مني بالشعر، ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، ووالله ما يشبه ما يقوله محمد شيء من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه.

وعند ما وصل الوليد بحديثه إلى هذا الحد أدرك أبو جهل أن الوليد قد رفع من قدر القرآن مع أن المراد هدمه، وأنه قد حلق به في آفاق لا يبلغ مطارها طائر فنبهه إلى أن هذه الشهادة على هذا النحو لا ترضي قومه. وأنها تحزنهم، ولا تحسن إليهم.

فطلب منه الوليد أن يتريث قليلا، وأن يتركه يفكر ليسحب هذه الشهادة

التى أعلت من قدر القرآن ، ورفعت من ذكر محمد وصمت برهة ثم قال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، ولقد سجل القرآن هذا الموقف حيث قال : إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ؟ ثم قتل كيف قدر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، سحر يفرق بين المرء ، وزوجه وأبنائه ، وأحبائه .

إن روعة التأثير القرآنى تتسرب من منافذ شتى إلى المنطقة الحارة من عمق الكيان الداخلى للإنسان فتلمس الوجدان ، وتهز المشاعر ، ومن واجبنا أن نتوقف لنتساءل : هل قال الوليد ما قال فى القرآن وهو من هو إلا وهو يعلم أن القرآن نمط من التعبير يتخطى طاقات البشر ، وقدراتها ؟ بل إنه لا يتجاوز نطاق البشر فقط ، بل يتجاوز قدرات الجن كذلك ، والجن صناع ماهر ، ومفتن حاذق ، لأن قدرته فوق قدرة الناس جميعاً ؟

ثم ألا يدل قول الوليد لأبى جهل ، ورفاقه أنه ليس فيهم من هو أدرى وأعلم منه بالشعر ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا حتى بأشعار الجن على أنه قد كانت هناك منتديات أدبية يدرس فيها الشعر ، ويفحص ، ويحلل ، ويحاكم إلى مقاييس للجودة ، والحسن قد ارتضاها القوم نظراً لطول الممارسة لحر القول ، وأنه كان من بينهم من هو أعرف ، وأعلم بدروبه ، ومسالكه وأن مثله يقضى فيه ، ولا ترد حكومته ؟

ثم ألا يفهم من قول الوليد عن القرآن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وأنه يحطم ما تحته ، وأنه يعلو ، ولا يعلى عليه ، عليه أنه توقف توقف أمام النسق القرآنى طويلا ، فوجده مزيدا فى بنائه المعمارى بحيث لا يشاركه فى روعته غيره ، ولا ينازعه فى تفرده سواه ، وحين أدرك ما أدرك وهو الخبير بكلام العرب ، البصير بمواطن الحسن والقبح فيه قال ما قال ؟

ثم ألا يدعونا هذا إلى الاطمئنان إلى أن ما يثيره القرآن فى القلب من إحساس غامض بالروعة ، والدهشة ، والتفرد ناشىء عن صياغته العجيبة بما تحمله من أفكار ، وبما تسوقه من أخبار ، وبما تبعث به من اطمئنان نفسى وارتقاء بيانى ؟

ثم ألا يدل تجاور الحروف ، وتلاصقها والتناسق الموقع الذى يبعث لحناً خالداً من غير بحور ، ولا قوافٍ ، ولا أوزان مع التشكيل ، والتصوير والحبك ، والسبك ، والتلوين ، والتنويع فى أسلوب القرآن وفى مداته ، وغناته ، وكلماته على أنه النموذج البيانى المعجز ، وأنه بما يملك من بلاغة قاهرة قد لوى عنق الوليد وفرض على مثله الإصغاء ، والهمة الرؤية الواعية لما فى طريقته من التفوق ، والاقتدار عما لم ير فى كلام العرب ؟

على أن الزلزال الذى أصاب عتبة بن ربيعة فهزه ، وكاد يقتلعه من مكانه وهو يسمع القرآن يتدفق حاراً نابضاً من فم الرسول حتى لقد طلب منه أن يسكت بعد أن وصل بقراءته إلى قوله تعالى : « فإن تولوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » يؤكد تلك الخاصية التى تمتاز بها طريقة القرآن فى العرض والأداء مما يدهش ، ويعجز .

إن التنويع فى مقال القرآن على حسب اختلاف الموقف ذاته مع كل أسرار الصياغة وخصائصها ـ فى النص الذى أصغى إليه عتبة وهو العربى الصميم الذى يعرف أفانين القول ، وسرائر الكلام قد جعل الانبهار ، والاندهاش ، والرعب ، والخوف كلها تطل عليه من أفق العبارة القرآنية ، لذا لم يقدر على المضى فى السماع وخارت قواه . وارتعدت فرائصه حتى أطبق يده على فم الرسول بعد أن تحول الزمير والجرس فى أذنه إلى دوى مدافع ، وأصوات قنابل .

والذى تخلص إليه أن القرآن نزل على قوم هم أهل سليقة وأصحاب لسان ،

وأنه أثار حوله جواً من الحركة ، والتأمل ، والفحص ، والدرس ، وأنهم تحققوا من ضآلة بيانهم إلى جوار بيانه . كما يتقنوا أن بناءه التركيبي ، ونحته الفني فوق طاقتهم جميعا . وأنهم حين أدركوا ضعفهم ، وعدم قدرتهم على المنازلة فى ساحة التحدى ، وعن المجاراة لبيانه فى ميدان المواجهة ردوا ذلك إلى عامل السحر الذى مسهم منه .

وما كان القرآن ليهمل الحديث عن البيان ، وأثره ، وإظهار المنة على الإنسان بتعليمه صنعته لذا صدع بقوله تعالى : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، وبقوله : « هذا بيان للناس ، بل إن مما يستفزبه القرآن ، ويتيه إن جاء غنيا بالبيان والإفصاح ، وبحسن التفصيل والإيضاح وبجودة الإفهام ، وحكمة الإبلاغ ، مما يشير إليه فى قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وقوله : « وكل شىء فصلناه تفصيلا ، على نحو ما أفاض فيه الجاحظ فى بيانه وتبيينه .

ومن وراء القرآن ترى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يمتدح البيان ، ويشيد به ، حتى لقد جعله منبع السحر فقال : « إن من البيان لسحرا ، وجعله معقد الجمال ومناط الافتتان حين سأله العباس عن المكان الذى يثوى فيه الجمال ويكمن فقال : فى اللسان . وليس اللسان سوى لغة قومه وآدابها ، وبلاغتها ، مما يثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم يرفع للقول البليغ الراية التى يجب ألا تسقط أبداً ، وكيف لا وهو أفصح العرب الذى أوتى جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً ، لذا تراه ينحى من طريق الكلام ما يحول دون بلاغته فيكره التكلف فى القول ، والإعراب فى الحديث ، والتشادق والثرثرة ، والفيهقة .

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل من البيان سحرا ، كما جعل من اللسان مكانا للجمال يعقد فيه لواؤه فإن الصحابة رضوان الله عليهم

قد حفظوا هذا كله عن الرسول ، وساروا على رعاية هذا المنهج وليس فى ذلك ما يدعو إلى الغرابة أو يبعث على الدهشة ، لأنهم قد نشئوا فى بيئة عربية تعرف الكلمة قدرها ، ووزنها ، وتجعلها فى أعلى وأعز مكان كما أنهم قد عاشوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم ورأوا كيف أوتى جوامع الكلم ، وكيف دان له عصى البيان وشامسه ، ولمسوا أثر ذلك فى بيانه . وفى مراسلاته التى جعل منها معارض فنية يبلغ بها ما فى نفسه ، ويبلغ بهما أقصى قدر من قلب مخاطبه ، منوعا فى خطابه . وملونا فى أسلوبه على حسب أقدار الناس فى الفهم ، وهو بذلك يفل الحز ، ويصيب المفصل ، ويلائم بين أقدار المتلقين ويراعى الموقف ، وما يقتضيه من كلام يطابقه فلا يزيد عليه ، ولا ينقص .

على أن هناك شيئاً آخر يضاف إلى ذلك وهو أن الصحابة رضوان الله عليهم قد أخذوا بما فى القرآن من مقال بعد أن تمكن منهم فى قوة ، واقتدار فأسر حواسهم ، وتملك أفئدتهم . وحرك عقولهم بما توفر لديه من نسل فريد ، وتناسق عجيب ، واتساق مدهش غريب بما هو متصل بلغته ، وأسرار تراكيبه .

أقول إن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاشوا هذا كله ، وتمثلوه كله . وعرفوا ألوان البيان وأنواعه ، وما يصح منه ، وما لا يصح ، وما يطابق مقتضى الحال ، وما يخالفه ، وما يصدق فنيا ، وما لا يصدق ومن أجل ذلك صدرت من روادهم أحكام قوموا من خلالها الأعمال الأدبية ، وقدموا من خلالها الشاعر وفضلوه . فهذا أبو بكر رضى الله عنه يقدم النابغة ويعلل لهذا التقديم فيقول : « هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً » .

إن حيثيات الحكم بالتقديم هنا تعود إلى صفات أساسية فى الكلام أعطته الميزة ، وحققت له الحسن . وليست تلك الصفات من حسن الشعر وعذوبة البحر ، وبعد العمق ، سوى جودة تأليفه ، والملاءمة بين ألفاظه ومعانيه ،

وعدم خروجه على المقاييس البلاغية ، فى نظام الكلام ، وفى جمال سبكه ، وروعة حبكه ، والتفنن فى تلوينه . مع حسن الإيقاع فى السمع ، النماشى عن لذيذ الوزن ، مع عمق اللغة وأعنى بعمق اللغة وما تحمله لغة الشاعر من أسرار ، وأحوال ، وهيآت ، وشيات مما هو من خصائص التراكيب . وهذا كله أقصد حسن الشعر ، وعذوبة البحر ، وبعد القصر . قيم صوتية ، ونفسية وشعورية ، وتعبيرية وليست فصاحة الكلام شيئا سوى هذا وكان أبا بكر حين وزن شعر النابغة وقال عن صاحبه ما قال قد حاكمه إلى مقاييس الفصاحة فلما وجدها مستوية فيه قال ما قال مما هو من خالص الدرس البلاغى . .

هذا والرواة يذكرون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفاضل بين الشعراء وكان يقدم زهير بن أبى سلمى وكانت حيثيات التفضيل عنده ترجع إلى أنه لا يعاظل ، ولا يتتبع حوش الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه .

ولو حاولت أن تتوقف أمام علة التفضيل ، والاختيار لراعك هذا الفهم الجيد من أمير المؤمنين لوظيفة الشعر ، ولأداء رسالته الجمالية مما يجعلنا لا نغالى إذا قلنا إن البلاغة قد عرفت عنده فنا جماليا يعتمد على مقاييس فنية عامة ، ومعايير ثابتة واضحة فى أذهان القوم لا على إحساس شخصى ذاتى . ولا على ذوق فردى نابع من التأثر الخاص حتى مع الدلالة عليها بمصطلح علمى يحدد القواعد ، ويضبطها ، لأن هذا هو الأمر الذى لا خروج فيه عما هو ممكن ، ولا عما هو طبيعى .

ولو حاولنا أن نمضى لنبحث عن تفسير للمعاظلة التى كان خلوها من شعر زهير ركيزة قوية من ركائز تفوقه ، وامتيازه فما هى ؟

أهى فاحش الاستعارة التى يتعذر فيها وجود علاقة صحيحة بين اللفظ وبين ما استعير له ؟

لعل فيما مثل به قدامة بن جعفر للمغالطات التي أطلق عليها فاحش الاستعارة . ما يجعلنا نطمئن إلى فهمنا لما بدا الفهم عند الرجل ، إذ ذكر في نقد الشعر قول أوس بن معن يرثي فضالة بن كلدة الأسدي :

وذات هدم عار نواشرها ... تصمت بالماء تولبا جدعا

وعلق عليه بقوله : فسمى الصبي تولبا وهو ولد الحمار ومما مثل به أيضا قول الشاعر :

وما رقد الولدان حتى رأيته ... على البكر يمريه بساق وحافر

وعلق عليه : فسمى رجل الإنسان حافرا فإن ما جرى هذا المجرى من الاستعارة : قبيح لا عذر فيه .

أم هي سوء النظم الناشيء من الخلل الموجود في الكلام نتيجة لسوء ترتيبه ، ورداءة تأليفه ، وتداخل أجزائه ، وركوب بعضها بعضا مأخوذ من تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى على نحو ما ذهب إليه أبو هلال العسكري ؟

ولقد مثل لذلك بأمثلة منها قول الفرزدق :

إلى ملك ما أمه من محارب ... أبوه ولا كانت كليب تصاهره

وقوله :

وما مثله في الناس إلا مملكا ... أبو أمه حي أبوه يقاربه

وقوله :

تعالى فإن عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وهي أمثلة قد ازدحمت بها كتب البلاغة كنماذج للصعوبة في فهم المراد منها نتيجة لسوء تأليفها ، وعدم وضع الألفاظ في مواضعها .

Scanned with OKEN Scanner

وعلى هذا فيكون معنى قول أمير المؤمنين : عن زهير بأنه لا يعاظل أى لا يخلط فى تركيب كلامه ، هذا معنى كلام أبى هلال الذى خطأ قدامة فى فهمه للمعاظلة بأنها فاحش الاستعارة .

على أنه يمكن القول بأن المعاظلة تتسع لكل هذا ، ولا تضيق به ذلك أن تراكب الكلام ، وتداخل أجزائه ، وخلط تراكيبه يصح أن يندرج تحت ما يسمى بمخالفة بحوث المطابقة لمقتضى الحال فتختلط المقامات بعضها ببعض ، ويتداخل المديح مع الهجاء ، والفخر مع الرثاء ، وعليه فيعبر بألفاظ المديح فى الهجاء ، وبألفاظ الهجاء فى المديح ، وبألفاظ الفخر فى الرثاء ، وبألفاظ الرثاء فى الفخر ، وتساق فى الجد ألفاظ الهزل ، وفى الهزل ألفاظ الجد وهكذا تؤدى المعاظلة فى الكلام إلى عدم تحديد الغرض الذى يكون موضوعا للحديث فيتداخل الكلام ، ويتكوم ، ويتراكب بعضه فوق بعض حيث يضيع الفصل بين المقامات . فلا يكون لكل مقام مقال ومن هذا المنطلق يدخل فاحش الاستعارة فى معنى المعاظلة بل فى القلب منها والصميم .

.. كيف ؟

أليس للاستعارة طرفان : مستعار منه ، ومستعار له ؟

أليس الطرفان فى الاستعارة كالطرفين فى التشبيه المشبه والمشبه به ؟

أليس بعد المسافة بين الطرفين : المستعار له ، والمستعار منه ، والمشبه ، والمشبه به ، وعدم توافقهما ، وتقاربهما مما يصح أن يعد خلطا . وتداخلا فى الكلام غير مقبول ، ولا محبوب ولا مرغوب ؟

أليس من حقنا أن نثور فى وجه الشاعر ، ونرفض كلامه حين يجمع بين طرفين لا يجتمعان أو أن يقارب بين شبئين لا يقتربان ؟

إن الشاعر حين يفعل ذلك يكون قد فرض علينا ما لا يقبل ذوقا ، ولا منطقا ، لأن لحل أحد الطرفين على الآخر حدا يصلح فيه فإذا تجاوزه فسد ، فليست القضية الجمع بين طرفين على أى وجه للجمع من غير إحكام ، وبلا تقدير ، ولا ملاءمة ، أو مواءمة فيما بينهما ، بل لا بد أن يكون أحدهما بسبب من الآخر ، وأن تتحقق صيغة المقارنة على نحو من التوافق ، والتلاؤم ، والانسجام ، فإذا ضل الشاعر الطريق ، وخانته أداته الفنية ، وخذلته ولم تنهض به ، وأتى بكلامه على نحو غير هذا فإنه يكون قد داخل بين كلامه ، وخالط فى تراكيبه ، ويكون حينئذ قد عاظل حين جمع بين ألفاظ لا تجتمع ويكون قد صعب تراكيبه بعدم الملاءمة بين أجزائها .

وننتهى إلى أن عدم وجود سبب قوى ، وشبه صحيح يجمع بين المشبه والمشبه به ، والمستعار له والمستعار منه . يعد على رأس المسائل التى تجعل التأليف للكلام سيئا ، وأن التعسف فى المؤاخاة بين مالا يتآخيان ، والمقاربة بين مالا يتقاربان يعد خلطا فى الكلام لا مبرر له ، ولا مسوغ ، وإركابا لألفاظ على ألفاظ مما ينتهى إلى تراكب المعانى بعضها فوق بعض دون هدف أو قصد .

ولا يصح أن يعترض بأن العلاقة التى تنشئها الاستعارة بين الطرفين لا تعتمد فى وجودها على المنطق بالقـــدر الذى تعتمد به على الخيال الذى يذيب الحدود بينهما على أساس من الخلط ، والدمج ، والصهر ، والتفاعل بين الدلالات بحيث تتشكل فيهما تشكيلا خاصا ، وتتلون بلون آخر ، إذ أن لغتها لغة الانفعال ، والوجدان ، وليست لغة الفكر والمنطق إذ أنه مع التسليم بهذا يجب الا يغيب عن أذهاننا أن تشكيل الأشياء تشكيلا جديدا قائما على الإندماج ، والامتزاج والانصهار ، والخلط إنما يقوم على نحو من الادعاء القائم على التحوير ، والتبديل ، والتغيير ، والإنابة بين طرفين بينهما

تشابه ، وتجانس ، وتلاق ، وتقارب . فيأتى الخيال ليقرن بينهما ، ويؤثر فى الموقف عن طريق إذابة الحدود بين عنصريهما ، وخلقهما خلقا جديدا .

ونترك قضية المعاظلة ، وما أثرناه حولها من دراسة لم نكن نقصد بالطبع إلى أن هذا بالتحديد هو ما أراده منها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ولكن كان القصد من وراء ذلك الإشارة إلى أن مقاييس البلاغيين قد تصدت إلى تلك الأحكام العامة فقننتها ، ووضحت معالمها وحددت رسومها إلى السبب الثانى الذى جعل أمير المؤمنين عمر يرفع شعر زهير ويقدمه على غيره من الشعراء وهو قوله : « ولا يتتبع حوشى الكلام » وحوشى الكلام : بمعنى وحشيه وغريبه وكأن أمير المؤمنين قد نظر فى شعر زهير نظرة فاحصة فوجد كلماته مأنوسة فى استعمالها . قد دار بها لسان الخاص من الأعراب ، وجرى بها فى كلامه . ليست بعيدة عن الذوق العربى الذى ألفها ، فهى واضحة الدلالة لا يصعب فهمها ولا يشق ، ولا يغمض ، إذ لا توعر فيها ، ولا وحشية بمعنى أنها تتردد كثيراً على الأسماع فهى معروفة مأنوسة .

ولعل قوله عن زهير : أنه كان لا يتتبع حوشى الكلام أنه كان يؤثر السهولة ، ولكن فى غير ركاكة ولا لين .

وكان مما أعجب به عمر من شعر - زهير - أنه كان لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه . وتلك لفتة ذكية يظهر من خلالها ربط العمل الفنى بمنشئه ، إذ أن الشاعر زهيراً فى رأى الناقد البلاغى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان صادقا فى الإبانة عن مشاعره ، وأحاسيسه صدقا أثار إعجابه ، وجعله يهتز من أجله ويطرب . ذلك أن شعره يفيض بمشاعر مبدعه الصادقة ، ويتدفق بأحاسيسه التى لازيف فيها ، ولا تزوير ، ولا بهتان . ولقد اتضح له ذلك من خلال ما ارتسم فى العمل الشعرى من شعور أصيل ، ومشاعر ، وأحاسيس لا تعمل

فيها ، ولا تصنع ، ولا تلفيق . مما يؤكد المطابقة النفسية ، والصورية تمام التأكيد .

إن زهيرا قد توقف أمام ما يجب أن يكون عليه المثال الكامل من الصفات العامة . فتحدث عن المثال للرجولة الصادقة ، والحكمة ، وإصابة الرأى ، والقيم الفاضلة مما يأخذ طريقه إلى الصفات العامة دون الخاصة وكان صادقا فى مشاعره ، وأحاسيسه ، وانفعالاته ، وغنى بذلك ، وغرد وأطال الغناء والتغريد .

ومعنى ذلك : أن أمير المؤمنين يحدد المجال الذى تصح فيه المبالغة وهى مبحث بلاغى وتحسن وذلك حين يتجه الشاعر بشعره إلى تصوير الصفات العامة على مثال فذ ، رائع ، فريد ، فإن مدح شخصا فإنما يمدحه على أنه مثال صادق . فهو يرسم صورته ، ويلونها على خير ما يعرف من رسم ، ومن ألوان .

ويبقى بعد ذلك أن نتوقف لنؤكد وجود الحس البلاغى ، والفنى فى هذا التاريخ وإن لم يدل عليه بمصطلح ، وقاعدة وقانون ، ذلك أن زهيرا الذى قال عنه أمير المؤمنين ما قال كان على رأس المجودين للشعر ، والمنقحين له والمعاودين النظر فيه مرة ، ومرات ممن عرفوا باسم عبيد الشعر ، وما كان زهير كذلك إلا لأنه كان يقف عند كل بيت يقوله ، ويقلب الرأى فيه حتى تخرج القصيدة كلها ناضجة مستوية ، على نحو ما أشار إليه الجاحظ فى قوله : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة بمكث عنده حولا كريتا ، وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه . . . وكما يسمون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات . . . الخ » .

ومعنى ذلك أن المراجعة ، والغربلة ، والفرز ، والتنقيح ، والتصفية

الإنتاج الفنى كانت تحدث تغييرا فى ألفاظه ، وتراكيبه ، وأدوات الربط فيه بما كان يرتفع بالإنتاج إلى مستوى أفضل من الأداء الفنى المتعين ، والقول الشعرى البليغ .

هذا ويجب ألا يغيب عنا ما نصح به أمير المؤمنين عمر الحطيئة حين أطلق سراحه ، وفك أسره بسبب هجائه للزبرقان من قوله : « إياك والهجاء المقذع . قال : وما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ .

قال : المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وتبنى شعرا على مدح لقوم ، وذم لمن تعاديهم ، فقال : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر » .

إننى لا أغالى إذا قلت إن أمير المؤمنين يكون بذلك قد حدد لشعر الهجاء المجال الذى يجب أن يحلق فى أفقه ، وهو بذلك يرسم الحدود للفن القولى حتى يلتزم بها ، فلا يتخطاها ، ولا يتجاوزها ، إذ أنه أداة توجيه ، وإرشاد . وإذا كان لابد من الهجاء فليكن فى غير إقذاع .

والهجاء المقذع هو مافيه التصريح بفضل قوم على ذم قوم آخرين ، وهكذا مما لا ترى نفسك مسرفا فى الفهم ، أو مغاليا فيه إذا أنت قلت إن أمير المؤمنين هنا يلفت الانتباه فى قوة إلى أن للتعبير البيانى أفانين ، وطرقا وإذا كان لابد من الهجاء فليكن فى أسلوب لايمت إلى التصريح بسبب وإنما يكون ذلك عن طريق آخر من طرق التعبير وفى كل ما يقابل التصريح من التعريض ، والتلميح ، والرمز ، والإشارة مما ينهض بما فى نفس المتكلم من غير تجريح . ومن الجلى الواضح أن كل تلك المباحث من صميم الحقل البلاغى .

فالبلاغة عند عمر تجنب التعقيد ، وترك الغريب الوحشى والبعد عن المبالغة والكذب .

على أن أمير المؤمنين كان يشد إعجابه ما يراه فى الشعر من استيفاء أقسام الشىء ، وحسن تفصيله إذا تم ذلك فى العمل الأدبى الذى استوت صناعته . وحسنت صياغته ، وكان صادقا صدقا لا يجانب المنطق ولا يخرج عن الصفات العامة للنموذج والمثال بحيث تجد ما تراه من مبالغة فى المدح قد أريد منها مدح المثال الكامل الذى يجتهد غيره فى أن يكون انعكاسا له لقد تحدث الجاحظ عن افتتان أمير المؤمنين ، وانبهاره بما سمى فيما بعد بحسن التقسيم وذلك حين أنشدوه شعر الزهير وقد كان مقدما لديه فلما انتهوا إلى قوله :

وإن الحق مقطعه ثلاث  يمين أو نفار أو جلاء

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق ، وتفصيله بينها . وإقامته أقسامها:

وإن الحق مقطعه ثلاث  يمين أو نفار أو جلاء

يردد البيت من التعجب .

وأنشدوه قصيدة عبده بن الطبيب الطويلة فلما بلغ المنشد إلى قوله :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه
والعيش شح وإشفاق وتأميـــل

قال عمر متعجبا :

والعيش شح وإشفاق وتأميل

يعجبهم من حسن ما قسم وفصل .

على أن الحديث عن الملاحظات البلاغية عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يجر إلى الحديث عن البلاغة عند الإمام على كرم الله وجهه وعند بنيه رضوان الله عليهم أجمعين .

وإذا كان كتاب « نهج البلاغة » المنسوب إلى الإمام يصور البلاغة التطبيقية فى علو كعبها ، ورفعة مستواها . بحيث لا يشاركه فى روعته ، وحسن مائه شىء سواه فإن كتب التراث تومض بلمحات ، وإشارات فى هذا الميدان ، كانت بمثابة البذور التى تجمعت مع غيرها فى حقل البلاغة ، وأثمرت الشجر المورق النضير .

ولعل قوله فى الحديث عن البلاغة :

« البلاغة إفصاح قول عن حكمة مستغلقة : وإبانة عن مشكل » .

وقول ابنه الإمام الحسن رضى الله عنه :

« البلاغة إيضاح الملتبسات ، وكشف عوار الجهالات بأسهل ما يكون من العبارات » على نحو ما جاء فى الصناعتين ما يشير إلى مذهبهما البلاغى ، ونظرتهما إليها : وهى نظرة تقوم على السهولة ، واليسر ، والكشف ، والإيضاح ، وعلى هذا فتكون وظيفة البلاغة عند الإمامين رضى الله عنهما : كشف المبهم ، وتوضيح الغامض : ومن ثم فتكون أداة تعريف ، ووسيلة تربية ، وتعليم ، وتثقيف . حين تعمد إلى الملتبسات فتوضحها ، وتفض مغاليقها بأجلى وأوضح بيان ، وحين تعمد إلى عوار الجهالات ، فتمحو ظلمتها ، وتزيل عوارها .

وانظر إلى التعبير بقوله : « عوار الجهالات » مما تشعر معه بأن الجهالات علة ، وسقم ، ومرض . وأن البلاغة هى العلاج الذى يضع حدا لنهاية تلك الأمراض ، والأوجاع إن معنى إيضاح الملتبسات ، وكشف عوار الجهالات والإبانة عن المشكل ، وإفصاح القول عن الحكمة المستغلقة ما يصح معه أن يكون الأسلوب صحيحا سليما ناصعا مشرقا مبينا يصل إلى قلب المخاطب ، وينتهى بتبليغ المراد إلى أقصى قدر من نفس المتلقى : أى أن يختار المتكلم

من الألفاظ ، والعبارات ما يبلغ بها إلى أعمق مكان من نفس مخاطبه فى يسر وعدم مشقة .

ولعل فى قول محمد بن على رضى الله عنه ما يؤكد ما ذهب إليه أبوه وأخوه فى تفسير معنى البلاغة كما هو مذكور فى الصناعتين إذ قال : « البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ » ، وبذلك تكون وظيفة البلاغة : تيسير الصعب ، وتذليل العسير وتوضيح المشوش من التعبير الفنى ويضاف إلى هذا كله إشارة الإمام على كرم الله وجهه إلى أهمية الإيجاز كطريق من طرق التعبير . يختصر المعانى اختصارا ويعبر عن كثيرها بالقليل من اللفظ مع الوفاء بحقها ، وعدم الخلل بها إذ قال :

« ما رأيت بليغا قط إلا وله فى القول إيجاز ، وفى المعانى إطالة » .

وفى ذلك إشادة أيما إشادة بالتعبير الموجز حين يأتى وافيا بالغرض ، غير مخل بالمعنى . وأرى أن فى كلمته تلك : إشارة مبكرة إلى أن اللفظ شىء ، والمعنى شىء آخر ، وبذلك يكون قد فصل بينهما .

ونحب أن ننبه إلى شىء ذى قيمة فى تاريخ هذا العلم بأن هذه الجزئيات التى تابعناها ، وتمليناها ، ووقفنا أمامها ، وأرجعناها إلى ما يمكن أن ترجع إليه من مباحث علوم البيان إنما هى لقوم كانت اللغة العربية السليمة الصحيحة دما يتدفق فى عروقهم ، وتجرى على ألسن صبيانهم قبل كهولهم بالفطرة ، والسليقة صحيحة عربية خالصة مستوية من غير تعمل ولا تكلف وكانت البيئة محدودة واللسان خالصا ولا يحتج بأن القرآن قد جاء بألفاظ لم يستطع أن يصل إلى معناها بعض العرب مما هو ذائع مشتهر من سؤال الفاروق عمر رضى الله عنه عن معنى « الأب » فى قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » وعن معنى « التخوف » فى قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف » ، وعن معنى

« الحرجة » حتى طلب أعرابيا ، وحدد قبيلته إذ أراده من بنى كنانة مدلجيا ، وحين جاءوا له براع من بنى مدلج قال له : ما الحرجة فيكم ؟

فقال : « الشجرة التى لا تصل إليها راعية ولا وحشية » .

ورأى عمر أنها تمثيل لقلب الكافر الذى لا تصل إليه المعرفة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذى التف فيه الشجر وعرف معنى « التخويف » بأنه التنقص وذلك عند « هذيل » ، وعرف معنى « الأب » بمعنى : المرعى .

وعلى هذا الأساس استطاع عمر أن يستوضح عما استغلق عليه ، وأن يعرف ما خفى عن فهمه ، وغاب عن إدراكه من معنى « الحرجة » والتخوف ... الخ .

كما أنه بذلك يكون قد لفت الأذهان لفتا قويا إلى أسس معرفة المستغلق من مفردات اللغة بالتوجه نحو ألسنة القبائل إذ قد تولد الكلمة فى عهد قبيلة من القبائل فيكون معناها عندها والعربية هى لهجات القبائل جميعا . ولذا نبه ابن عباس الناس إلى الشعر على أنه ديوان العرب ، وسجلهم الذى رصد اللغة رصدا كاملا ، ولم يغب عنه منها شىء وما يزال قوله : « إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب » يردد ويكرر ويدرس .

وننتهى إلى أن البلاغة فى صدر الإسلام شأنها شأن البلاغة فى العصر الجاهلى بدت فى شكل ملاحظات جزئية دارت حول النص محاولة أن تنهض به ، وأن تأخذ بيده ، وأن توجهه توجيها سديدا لم تتميز ، ولم تتحدد ، ولم تستقل ، وإن من أوضح مادعت إليه فى تلك الحقبة المبكرة من تاريخ نشأتها ، وارتقائها ، ونموها دعوة الشعراء إلى أن يتجنبوا المبالغة المفرطة فى الكذب والزيف ، والتزوير . والتعقيد وعمل المنشئين ما وسعهم العمل على تذليل الصعب ، وتيسير العسير ، وتوضيح المبهم ، والله أعلم ؟

# أهم المراجـــع


١ - البيان القرآني للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي

٢ - البيان والتبيين للجاحظ

٣ - البلاغة تطور وتاريخ للأستاذ الدكتور شوقي ضيف

٤ - البلاغة العربية في دور نشأتها للأستاذ الدكتور سيد نوفل .

٥ - البلاغة العربية تاريخها ، مصادرها ، مناهجها للأستاذ الدكتور علي عشري زايد .

٦ - التصوير الفني في القرآن الكريم للأستاذ سيد قطب .

٧ - التصوير البياني للأستاذ الدكتور محمد حسنين أبو موسى .

٨ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني .

٩ - الشعر والشعراء لابن قتيبة .

١٠ - الصناعتين لأبي هلال العسكري .

١١ - العمدة لابن رشيق .

١٢ - كتاب سر الفصاحة لابن سنان دراسة وتحليل للأستاذ الدكتور عبد الرازق أبو زيد زايد .

١٣ - مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية للأستاذ الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ .

١٤ - مذاهب النقد وقضاياه للأستاذ الدكتور عبد الرحمن عثمان .

١٥ - النبأ العظيم للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز .

١٦ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر .


Scanned with OKEN Scanner